محاضرة رقم: 5

دوسوسير(1857-1913)

تمثل التحولات الكبرى التي حدثت في المرحلة المعاصرة، منعطفاً حاسماً في بروز موجة الاهتمامات اللغوية، وانزياح الميتافيزيقا عن موقعها وما رافق هذه التغيرات من اشكالات فكرية عميقة مست بنية المنظومة النفسية والألسنية والمسائل المنطقية، فأخذت هذه الدراسات اللغوية تحضى بعناية خاصة، فأصبحت تحتل مكانة متميزة في قلب الانشغالات الفلسفية التي تفاعل معها التيار البنيوي، الذي يعد فيه "سوسير" من الفاعلين الأساسين في تشخيص بنية المنظومة اللغوية، فما طبيعة الأسس التي تخضع لها اللغة؟

يرجع الفضل في استعمال معنى البنيـة في الدراسات اللسانية إلى عالم اللغويات السويسري "سوسير"وذلك في المحاضرات التي ألقاها في جامعة "جنيف"، حيث قال : "اللغة نظام لا يعرف غير نسقه الخاص به" ويقرر مرة أخرى أن اللغة نظام ينبغي بل يجب أن تعتبر كل أجزائه من حيث تضامنها المتواقت"[1]، وبهذا يمكن النظر إلى اللغة بوضفها منظومة تنطوي على سلسلة من العناصر التي يؤثر بعضها في البعض الآخر، وذلك من خلال عملها، لأن وحدة اللغة، تقوم على أساس أنها كيان مستقل، ولا يمكن تجزئته أو عزل عناصره ومن ثم البحث في هذه العناصر.

يسعى "سوسير" في إثارته الفكرية إلى بيان حقيقة البناء اللغوي وما يتضمنه من ألفاظ وأصوات حتى لا تعتريه بعض الالتباسات التي قد تشوه صورته، إذ يفصل في فكرة البنية في قوله: " إنه لوهم كبير أن يعد اللفظ مجرد جمع بين صوت معين وتصور معين، فمثل هذا التعريف من شأنه أن يعزل اللفظ عن النظام الذي يؤلف اللفظ جزءا منه، وأن يوهمنا بأن من الممكن أن نبدأ من الألفاظ لتأليف النظام وذلك باجراء عملية جمع بينهما، بينما الواجب هو الابتداء من الكل المتضامن ابتغاء أن يصل بالتحليل إلى

[1] Saussure, Cours de linguistique générale, ed, payot, Paris, 1949, p.40

العناصر التي يتألف منها هذا الكل"[2]، وهذه الطريقة يراها مناسبة في مجرى الكشف عن محتوى هذه البنية في نظامها العام.

وقد كان "سوسير" يستخدم كلمة نظام بدل بنية التي يستخدمها اليوم أصحاب النزعة البنيوية، لكن المقصود من حيث المعنى واحداً تماماً، ويؤكد "مييه": " بأن كل لغة لها نظام متسق تمام الاتساق، محكم التأليف"[1] ، لأن النظام هو الذي يحددها حين يقوم بربط جميع عناصرها وما تضمه من دلالات لغوية ومدلولات فكرية، تتيح فرص معرفة دلالات الألفاظ والأصوات وفهم الأشياء والظواهر.

وأشاد "جرامون" بما ذهب إليه "دي سوسير" من أن كل لغة تؤلف نظاماً متماسكاً محكماً، تشد فيه الوقائع والظواهر بعضها بعضا، ولا يمكن عزلها ولا تتناقض فيما بينها" فالبنية في معناها تشير إلى الترابط القائم بين أجزاء اللغة الواحدة حيث ينظم كل أشكال هذه اللغة في بنائها الصوري، سواء في تركيب الأصوات ، وفي تركيب الجمل، فلا يمكن على سبيل المثال دراسة اللفظ في نظام معجمي، والنظام الصوتي للغة ما ليس هو المجموع الآلي للعناصر الصوتية المنعزلة، بل هو كل عضوي، أعضاؤه هي العناصر الصوتية وبنيته خاضعة لقوانين تتحكم فيها.

هناك سمات مشتركة بين النظم اللغوية المختلفة إلى جانب الخصائص المستقلة التي لكل نظام منها، فبعض الارتباطات اللغوية موجودة مشتركة بين عدة لغات ، وبعضها الآخر تنفرد به لغة عن سائر اللغات أو مجموعة لغوية عن سائر المجاميع، وعلى هذا الأساس يجب النظر إلى اللغة على أنها كيان عضوي تخضع لنظام خاص، لذلك من الضروري العمل على كشف هذا النظام ، وهذا ما تدعو إليه النزعة البنيوية.

وعلى ضوء هذا المسعى، فإن النزعة البنيوية في الدراسات اللغوية تهدف إلى التأكيد بأن اللغة تخضع لنظام محكم مترابط الأجزاء، له تركيب خاص ابتداء منه تفهم أشكال اللغة وتحولاتها، وكل لغة من حيث المبدأ تشكل وحدة مستقلة تتوقف أجزاؤها بعضها على بعض باطناً، وهذا الاعتماد الذاتي

[2] Saussure, Cours de linguistique générale, p.157
[1] Meillet A, linguistique historique, et linguistique générale, paris, 1936, p.158

الباطني، هو ما يسمى البنية، وكما يشرحها "اميل بنفنيست": " إن المبدأ الأساسي في هذه النزعة، هو أن اللغة تكون نظاماً، كل أجزائه متحدة بواسطة رابطة تضامن وتوقف بعضها على بعض، وهذا النظام ينظم وحدات، هي علامات مفصح بها، تتفاضل ويحدد بعضها بعضاُ، والمذهب البنيوي يقول بسيطرة النظام على العناصر، ويهدف إلى استخلاص النظام من خلال العلاقات القائمة بين العناصر، سواء بين العناصر في السلسلة المنطوق بها وفي النماذج الشكلية، وبين الطابع العضوي للتغيرات التي تخضع لها اللغة"[1] .

في هذا السياق، اتضح أن اللغة تتضمن سلسلة من المنطوقات والتعابير التي تقوم بها، مما يدل دلالة واضحة على أن نوعية التعابير التي تقيمها اللغة الصورية من حيث البناء التركيبي يكون سليماً وواضحاً، لأنه " قد اتضح من هذا التحديد، أن القدرة على التكلم في لغة ما يستلزم قدرة الكلام عن هذه اللغة. وهذه العملية الأخيرة هي التي تساعدنا على مراجعة وإعادة تعريف المفردات التي نستخدمها " [(1)]، ويتجلى هذا من خلال أهمية الأبحاث المنطقية واللسانية على السواء.

في هذا الشأن يمكن التأكيد أن المجال اللغوي قد اتسع فضاءه بشكل لافت، تبيّن خلاله أن الفيلسوف لم يعد يؤمن بأن موضوع اللغة قد بقي ضمن دائرته الفلسفية، وإنما يجب فهم أن المشهد الفلسفي قد تغير بفعل تأثيرات الأبحاث اللسانية والتداولية والسميائية، وأن هذا التغير قد أحدث ضجة معرفية قوية أعادت النظر في بنية اللغة، هذا ما قاد إلى اعتبار " أن نظرية اللغة قد حصل لها تطور في ما بعد في كتاب الأبحاث الفلسفية، لكونه نقل بنية اللغة (قضايا وأسماء) حول بنية العالم (وقائع وأشياء)المتصلة بالطرح المتعلق بما بعد اللغة ذات الطرح الأنطولوجي " [(1)] ، وهذا ما يجسد التغيرات الابستيمولوجية والعلمية التي حصلت داخل المنظومة اللغوية.

---

[1] Émile Benveniste, problèmes de linguistique générale, ed, Gallimard, Paris,1966. P.68

[(1)]- R. Jakobson : Essai de linguistique générale, Minuit, Paris, 1963, p.81.

[(1)] -Gilbert Hottois : Pour une Métaphysique du langage , Librairie Philosophique, J.Vrin, Paris, 1981, p.25.

هذا ما يؤكد بأن البنيوية فتحت آفاقاً رحبة من الناحية الابستيملوجية والعلمية في تطوير مبحث اللسانيات مما يعطي انطباعاً، بأن اهتمامها أفضى إلى إقامة فحوصات نظرية ومنهجية في تشخيص بنية اللغة ومعرفة القواعد التي تخضع لها، لذلك " كان اللّغويين، ممن يصطلح عليهم اليوم بعد نشأة اللّسانيّات وحصولها على استقلالها المعرفّي بفقهاء اللّغة، يضعون المسلّمات المنهجية، فيستقي منها الفلاسفة ما به يؤلّفون النظرية الكلّية، وبهذا التقدير بدا أن حظ النحاة من ضبط فلسفة اللغة نزير إذا ما قيس إلى حظ الفلاسفة " [2] .

يظهر من خلال هذا الطموح العلمي والفلسفي الذي تسعى إليه البنيوية في التواصل الفكري والعلمي ، لم يكن معزولاً عن التحول الذي سجلته فلسفة اللغة مما يعبر بشكل من الأشكال عن المنعطف اللغوي الذي يلامس أرضية المشكلات التي أصابت الطرح الوظيفي والتكويني والبنيوي للمعرفة الفلسفية التي فُرض عليها استلهام الجوانب الرياضية والمنطقية والرمزية وإخراجها من حالة الانغلاق إلى حالة الانفتاح السائد بين الفلسفة ومختلف العلوم والمعارف .

[2]- عبدالسلام المسدي: اللسانيات وأسسها المعرفية، الدار التونسية للنشر، تونس، الطبعة الأولى 1986، ص 24-25.